مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نصف الشهري

تحليل للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

تحليل نصف شهري للتطوّرات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

1 إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمة.

2 الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.

3 بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.

4 إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

"وحدة الساحات" في إشكالاتها السياسية وأبعادها العملانية

1 – مدخل:

لطالما كان تحدي "الحرب على جبهتين" أو أكثر، هاجساً تخشاه "إسرائيل" وتسعى لتفاديه، سواء في حروبها التقليدية الخاطفة مع الجيوش العربية، أو في صراعها المديد والمرير مع جبهة المقاومة وفصائلها. ومنذ معركة سيف القدس، دخل مفهوم "وحدة الساحات" في عمق التفكير السياسي الفلسطيني المقاوم ، ولا سيما بعد النجاحات التي سجّلتها الضفة الغربية في الدخول على خط المواجهة مع الاحتلال من أوسع أبوابها، لتصبح عاملاً مقرّراً في معادلات الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي. وهذا التطور لم يكن ليحدث تلقائياً وعفوياً، بل كان ثمرة جهد منظّم ودؤوب انخرطت فيه حركات حماس والجهاد الإسلامي وفصائل وأذرع أخرى، تزامناً مع صعود "جيل الألفيّة" من الشباب الفلسطينيين، وتنامي دورهم في مقارعة الاحتلال، وانتشار ظاهرة " الذئاب المنفردة" أو "المقاومة الفردية"، لتصبح الضفة واحدة من أهم ساحات الاشتباك مع الاحتلال، وبصورة وضعت قادة الاحتلال، من المستويين الأمني والسياسي، وجهاً لوجه أمام أسوأ كوابيسهم.

في هذا السياق، نبّه رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي السابق، الجنرال غيورا آيلند، في مقال بصحيفة "يديعوت أحرونوت" العبرية، إلى أن "التهديد الأمني الأكبر والأساس على إسرائيل، ليس الواقع الأمني في الضفة الغربية، ولا استفزازات حزب الله؛ بل هو ينبع من الرؤيا الإيرانية لتوحيد الساحات والتنسيق بينها، واستغلال التحسن الهائل في قدرة الهجوم الدقيق"؛ الأمر الذي قد يسهم في تسريع توجّه طهران نحو فتح حرب ضد "إسرائيل" تستخدم فيها أسلحة هجومية، متنوعة ودقيقة. وأضاف: "بصرف النظر عن تطلعات إيران النووية ومحاولاتها المس بالإسرائيليين، فقد بلور الإيرانيون استراتيجية مبنيّة على ستة عناصر هي: أولاً، استخدام كل قوة حزب الله، وقوة تتضمن كتائب من القوات الخاصة تجتاح الجليل، وعشرات آلاف الصواريخ، وخاصة السلاح الدقيق وصواريخ باليستية، ومُسيّرات هجومية؛ ويُحتمل أيضاً صواريخ جوّالة". والثاني؛ مجموعات مؤيدة لإيران في سوريا، العراق واليمن، وجميعها لديها قدرات هجومية بسلاح دقيق. والثالث؛

إمكانيات هجومية إيرانية تتضمن قدرات ذات مدى ناجع ضد "إسرائيل". والرابع، بحسب الجنرال، استخدام قدرات "حماس" و"الجهاد الإسلامي" من غزة. وأما العنصر الخامس، فهو إثارة انتفاضة ثالثة أقوى من سابقاتها. والسادس والأخير، إقناع آلاف العرب في "إسرائيل" (ممّن أجبِروا على حمل الجنسية الإسرائيلية) بالانضمام إلى النضال، في ظل استغلال اغترابهم عن إسرائيل.

ونوّه آيلند إلى أن "إيران تؤمن بأن التفعيل المنسّق لكل هذه القوى، مع التشديد على استخدام السلاح الدقيق بأعداد كبيرة ضد البنى التحتية، العسكرية والمدنية في إسرائيل، سيدفعها نحو الانهيار"، مشدداً على أهمية أن "تأخذ إسرائيل بجديّة نوايا العدو والقدرات الكامنة لتحقيقها على حدٍ سواء. فالرؤية الإيرانية لا تزال حتى الآن لا تُترجم إلى خطة عملياتية مع جدول زمني. لكنهم يتطلعون للوصول إلى ذلك."

وقال: "هناك أكثر من هذا، إذ تُشجّع الإيرانيين أربع ظواهر أخرى هي: الأولى، مكانتهم الدولية تعزّزت جداً؛ وروسيا بحاجة إليهم، والصين تغازلهم، والسعودية تنبطح أمامهم. والثانية؛ فشل الولايات المتحدة في عزل إيران. والثالثة؛ فقدان الدعم في إسرائيل من جانب دول الغرب بعامّة، والولايات المتحدة بخاصة. ولا يدور الحديث هنا فقط عن اللغة الدبلوماسية الباردة من جانب الرئيس الأمريكي بايدن؛ وذلك كي نستوعب، أنه في وضع السيناريو الموصوف أعلاه ستحتاج إسرائيل لتوريد عناصر حيوية في إطار المواجهة، بالضبط مثلما حصل في عام 1973؛ وليس مؤكداً على الإطلاق بأن الإدارة الأمريكية الحالية ستخرج عن طورها مثلما فعل نيكسون قبل 50 سنة لمساعدتنا". والظاهرة الرابعة تتعلق بـ"الشروخ الداخلية في إسرائيل وتصريحات رجال احتياط كثيرون أنهم سيتوقفون عن التطوع في الخدمة".

ورأى الجنرال آيلند أن "كل العناصر الأربعة هذه تشجّع إيران. وليس مهماً كم هو التقدير الإيراني دقيق أو مغلوط، بل يكفي أن يؤمنوا هم أن في وسعهم أن يقوموا بمثل هذه الحرب كي تقف إسرائيل أمام تحد وجودي، كما جرى في حرب 1973". واستدرك بقوله: "إسرائيل ليست عاجزة، إذ توجد لدينا قدرات استخبارية وعملياتية فائقة، ومن المعقول حتى أن نُحرز الانتصار في مثل هذه المواجهة الشاملة؛ لكن الثمن الذي سندفعه في الخسائر وتدمير البنى التحتية وهبوط مستوى المعيشة وفقدان الأمن سيكون عالياً جداً".

ولفت رئيس مجلس الأمن القومي إلى أن هناك "سيناريو آخر يمكن بموجبه أن تُشعل استفزازات حزب الله المعركة في وقت مبكر أكثر ممّا قدّرنا"، منوّهاً إلى أنه "توجد أربعة أمور من الواجب على الحكومة الإسرائيلية

أن تركّز عليها هنا والآن؛ وهي: تحسين الدفاع عن البنى التحتية المدنية؛ لأنه الموضوع المهمل منذ سنين؛ مع وقف أي إجراءات تخلق مساً بالوحدة الوطنية، وأساساً وحدة الجيش، وأيضاً حيال المجتمع الدرزي؛ وتحسين العلاقات مع الإدارة الأمريكية؛ وإجراء تفحص مع الأمم المتحدة وفرنسا لمدى الاستعداد في لبنان لترسيم حدود بريّة متفق عليها مع إسرائيل".

2 – مصطلح "وحدة الساحات" في أبعاده المفهومية:

بالرغم من أهمية مصطلح "وحدة الساحات" المستجد، والذي قدّمته المقاومة وقواها المختلفة باعتباره مفهومًا ناظمًا لعملها، فإنه ما يزال مفهومًا يحتاج لمزيد من التبيين. وهو يستهدف تحقيق ثلاثية مهمة، إذ إنه موجّه بداية نحو أفراد وكوادر وقوى المقاومة بكافة التشكيلات والتناقضات التي تتألف منها؛ بمعنى أنه يسعى لصياغة وجهة استراتيجية– سياسية، بحيث تندرج كافة أعمال المقاومة تحت مِظلّة هذا المفهوم الواسعة؛ وبالتالي يصبح أي فعل مقاوم في جنين، رغم كونه فعلًا محليًا وله ديناميات الخاصة، إلاّ أنه ينضوي تحت هذه المظلّة التي بدورها تتضمن أفعالاً أخرى في غزة ولبنان وسوريا وتربطها ببعضها البعض. وبكلمات أخرى، يعمل هذا المفهوم على ربط متخيّلٍ– أيديولوجي، ولكنّه ربطٌ يمتلك عنصر الإجماع على هدف مشترك بين الجُغرافيات والتنظيمات والقوى العاملة تحت المظلّة نفسها؛ كما أنه يُلزِم أي تحليل بأن يخرج من سياقه المحلي البحت ويربطه بتلك الأبعاد الأيديولوجية والسياسية. والبعد الثاني للمفهوم هو إمكانية شرعنة الحرب في مخيّلة وتصورات المجتمعات العربية والإسلامية، خاصة تلك الشعوب التي إذا ما اندلعت الحرب فستدفع أثمانها أيضًا. بمعنى أنه يأتي في ظل بحث محموم ليس فقط عن هدف سياسي– استراتيجي، بل أيضًا عن قاعدة تشرعن العمل المقاوم، خاصة بعد عقد من الحروب الأهلية التي اندلعت عقب الثورات والاحتجاجات في العديد من الدول العربية (الربيع العربي)، وما خلّفته من انقسامات حادة في العديد من الدول التي ترتبط بجغرافيا المقاومة.

ومن ناحية أخرى، يأتي هذا المفهوم ليضع هدفًا استراتيجياً ووجهة محدّدة له، ولكنه في الوقت نفسه يقدّم قوّة تفسيرية لضرورة المقاومة وحاجتها في مخيّلة المجتمعات العربية، خاصة وأن "وحدة الساحات" ارتبطت في بدايتها وما زالت بالصراع حول البلدة القديمة في القدس والمسجد الأقصى، كموقع يتكثف فيه العديد من

الرموز الدينية والقومية العربية والإسلامية. أمّا البعد الثالث لهذا المفهوم، فهو كامن فيما يشير إليه من تحولات وتغيرات في المقاومات بالمنطقة. فهو يشير بشكل لا لبسَ فيه إلى فائض قوة لدى المقاومة يحتاج بدوره لصقل مفهوم يوازي هذا التحول؛ من مقاومات دفاعية تسعى إلى إيلام العدو بضربات مكثّفة تفضي لرحيله وإخلاء أراض تعيش فيها المقاومة والعدو (الضفة الغربية مثالًا)، إلى واقع يُحصّن فيه العدو نفسه بجدران إسمنتية وقبب حديدية، ويعاني من أزمة الفعل الهجومي في العديد من الساحات (خاصة في لبنان)، وإلى حد ما في غزة أيضًا.

لقد شهدت العقود الثلاثة الماضية تحوّلًا لافتًا في بنية المقاومة وتنظيمها لنفسها، وفي قدرتها على بناء بيئات متعددة قريبة منها؛ بل وفي بعض الأحيان في تحوّلها إلى جيش نظامي. فعند الحديث مثلاً عن كتائب عز الدين القسام، فإننا نتحدث عن بدايات مكوّنة من عشرات الأفراد العاملين على شكل خلايا موزّعة، والتي كانت في الكثير من الأحيان تبادر للعمل بشكل مستقل عن التنظيم المركزي، وصولًا إلى جيش يصل تعداده إلى عشرات الآلاف من المقاتلين، بحسب بعض التقديرات الإسرائيلية؛ ناهيك عن القوى العسكرية الأخرى. وما يقدّمه مفهوم وحدة الساحات باختصار هو شرعنة العمل المقاوم، وربط قوى تمتلك مخزونًا من التناقضات ببعضها البعض. كما أنه يسهم في بناء هدف وإجماع سياسي بين هذه القوى. وبينما لا يصل هذا المفهوم إلى اتفاقية دفاع مشترك، إلاّ أنه يقترب من هذا النوع من الاتفاقيات بحيث يشكّل رويدًا رويدًا إمكانيات متعددة ويعقّد حسابات الحرب والسلم في العلاقة مع كيان الاحتلال. وبالتالي فإن «لا–وضوح» المفهوم يعبّر عن تناقضات متعددة تدخل عملية صياغته وترجمته للواقع العملياتي والعسكري. فهذا الغموض يعني أن دولة الاحتلال عليها تصميم عملياتها العسكرية آخذة بعين الاعتبار إمكانية تطوّر أي مواجهة صغيرة إلى حرب إقليمية متعددة الجبهات. وفي الوقت ذاته، يمنح "لا–وضوح" المفهوم هذا إمكانية المراوغة بحيث تحدّد المقاومة متى تتدخل أو ما هي خطوطها الحمراء أو متى يكون الرد موسّعًا، ومن كافة الجغرافيات، ومتى يكون محدودًا، ومن موقع محدد، أو متى لا يكون هناك رد .

ويمكن القول إن اللا–وضوح يشكّل بعدًا مهماً في الوظيفة المرتبطة بمفهوم وحدة الساحات، أي أنه غموض متعمد، إذ يتيح للقوى المنضوية تحت مظلة العمل المقاوم، المجال لتعريف المفهوم بأشكال متعددة وضمن استراتيجياتها ورؤاها الخاصة، مما قد يؤدي أيضًا لالتباس وسوء إدارة للمعركة، في بعض الأحيان، بين القوى

المختلفة. وما من شك في أن الاستعمار يعيش ويبقى بقدرته على تفكيك الروابط في المجتمعات التي يستعمرها. بمعنى أن الشغل الشاغل لأي قوة استعمارية هو تدمير كل الروابط الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية والجغرافية الجامعة التي تشكّل خطرًا على بقائه، وإعادة إنتاج المجتمعات التي يستعمرها بتفكيك روابطها. ففي غرف التحقيق يتم فصل الروابط التنظيمية أو الصداقات الحميمة؛ وفي السياسات الاقتصادية يتم خلق طبقات متناقضة موجِّهة سياطها نحو بعضها البعض؛ وعبر آليات التعاون مع الاستعمار، يتم تشكيل بنى تعمل على نزع «الثقة الاجتماعية» التي تشكّل عموداً فقرياً أساسياً في بناء الروابط السياسية والاجتماعية والجهادية.

إن المقولة القديمة التي تقول إن الاستعمار قائم على فكرة فرّق تسد صحيحة؛ ولكنه أيضًا قائم بالدرجة نفسها على ما يتيحه من روابط تتعاون معه أيضًا. ويمكن النظر للتقسيمات الجغرافية بين قدس وضفة وداخل وغزة وشتات، لتظهر لنا قوة الفصل والروابط التي تمتلكها "دولة" الاحتلال. بل إنها ترمز لتلك القوة بمنظومات مادية: هويات وجدران وتصاريح وحقوق وتحديد حرية الحركة وممارسات الحرب. وفي ظل قوة الربط والفصل هذه يأتي مفهوم وحدة الساحات، ليجسّد في المخيّلة النظرية ما هو كامن ومحتمل في الواقع؛ أي القدرة على تجاوز العديد من التناقضات، ليس فقط في فلسطين وجغرافيتها الممزّقة، بل أيضًا في المنطقة كلها، وصولاً الى الوحدة في الحرب والسلم ونزف الدماء. لهذا يشكّل مفهوم وحدة الساحات خطراً حقيقياً على المستعمِر، لأنه إعادة إنتاج لحلم عربي قديم بهيئة وصيغة وضمن حدود تاريخية مختلفة. حلم تطوير وبناء مجتمعات عربية وإسلامية تستطيع تحدي الوجود الصهيوني والعمل بصورة موحّدة من أجل إنهائه. وهذه المهمة ليست بسيطة بطبيعة الحال، فهي تتضمن تجاوز العديد من النزعات والحزازات الانعزالية الفردية والوطنية الضيّقة. كما أنها تأتي في سياق تاريخي تحاول فيه قوى انعزالية إخراج فلسطين من وجدان الإنسان العربي. ويمكن القول إن تجسيد هذه الوحدة على مستوى الحرب، بل أيضًا إعادة تعريف كل جغرافيا كساحة قتال، هو بحد ذاته فعل ينزع عن تلك الجغرافيات ادعاءها الانعزالية أو مصالحها الضيّقة؛ فهنا تُقدّم لنا خارطة نضالية متخيّلة جديدة تجعل من لبنان وسوريا والضفة وغزة والقدس ساحات حرب لها وجهة محدّدة وعنوان واحد.

3 – تساؤلات وإشكاليات:

يطرح مصطلح توحيد الساحات على أرض الواقع تساؤلات وإشكاليات عديدة، ومنها: هل اعتقال قائد سياسي في الضفة الغربية سيؤدي إلى حرب في غزة؟ أم أن استشهاد قائد كالشيخ خضر عدنان سيؤدي إلى حرب في لبنان؟ هل دخول مستوطن بقربان إلى الأقصى سيبدأ حربًا جديدة؟ هل بناء وحدة استيطانية في الضفة سيؤدّي إلى رد فعل من سوريا؟ هل تهجير حي الشيخ جراح سيؤدّي إلى صواريخ تنطلق صوب تل أبيب؟ وهل اغتيال في غزة سيؤدّي إلى فعل مقاوم في الضفة الغربية؟

على خلفية هذه التساؤلات يمكننا تخيّل التبعات السياسية والاستراتيجية المعقّدة لمفهوم كمفهوم وحدة الساحات، حيث إن غموض المفهوم في حيثياته وتفاصيله يعني أن "دولة" الاحتلال عليها تصميم حساباتها العسكرية المستقبلية آخذة بعين الاعتبار إمكانية تطور أي مواجهة صغيرة إلى حرب إقليمية متعددة الجبهات. لكن حتى الآن لم تصل قوى المقاومة إلى هذا الشكل من القدرة على التأثير على ممارسات العدو وتفكيره ووعيه. إلّا أنها بالتأكيد وفّرت القدرة على البدء بطرح هذه الأسئلة المهمة، وما إذا كان يمكن توظيف محاولات ربط الساحات في وجه حرب الاستنزاف البطيئة التي يشنّها العدو على كافة الصعد (مصادرة الأراضي، الاعتقال والاغتيال، بناء وحدات استيطانية، تهميش الوعي الفلسطيني بتشويه المناهج التربوية، وغيرها من قضايا مهمة)، وكيف سيكون من الممكن تحويل القوة العسكرية إلى رادع في هذه الحرب البطيئة، التي يطلق عليها اسم «الحرب بالنقاط»؟

لقد سعى العدو الإسرائيلي من خلال عدوانه على قطاع غزة ما بين 5-7 /2022/8 إلى محاولة الاستفراد بحركة الجهاد الإسلامي وتوجيه ضربة عسكرية قاصمة لها؛ كما سعى لكسر معادلة "وحدة الساحات"، وفرض مسارات التهويد والاستيطان في القدس وباقي الضفة الغربية، عبر محاولة إضعاف صورة المقاومة في قطاع غزة وإفقادها جانباً من مصداقيتها. وقد قامت حركة الجهاد الإسلامي بالتصدي القوي للعدو، ساعية للتأكيد على "وحدة الساحات" وعلى إطلاق سراح الأسيرين بسام السعدي وخليل العواودة، بينما وفّرت لها حماس الدعم اللوجيستي اللازم، من دون المشاركة في خوض المواجهة العسكرية المباشرة. وهذا ما عبّر عنه الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، زياد النخالة، في مؤتمر صحفي عقِد في طهران، بقوله: إن سرايا القدس هي من قادت معركة "وحدة الساحات" وحقّقت إنجازًا كبيراً. لكننا نحن والأخوة في حماس في تحالف

مستمر ومع مختلف الفصائل، والعدو لن يستطيع أن يفرّق بيننا. وصحيح أن حماس لم تتدخل في المعركة، لكنها هي العمود الفقري في احتضان المقاومة". وقال : " إن معركة وحدة الساحات كانت أم المعارك بالنسبة لنا، لأن حركة الجهاد الإسلامي خاضتها وحدها"، مشيراً إلى أن "تسمية وحدة الساحات لم تكن عفوية، وعنينا بها فلسطين وساحات محور المقاومة".

لا شك بأن مفهوم وحدة الساحات، الذي ينطلق من مبدأ " لا إنجاز وطنياً بدون وحدة وطنية"، والذي قال عنه سماحة السيد القائد علي الخامنئي في رسالته إلى الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي زياد النخالة، إن الإنجازات التي حقّقتها الحركة في معركة "وحدة الساحات" تُثبت أن "أي جزء من المقاومة يستطيع لوحده أن يمرّغ أنف العدو بالتراب".

وفي المحصّلة، يشكّل مبدأ وحدة الساحات خطراً داهماً على المستعمِر، لأنه يجسّد إعادة إنتاج لحلم عربي قديم، لكن بهيئة وصيغة وضمن حدود تاريخية مختلفة؛ حلم تطوير وبناء مجتمعات عربية وإسلامية مقاومة تستطيع تحدي الوجود الصهيوني الاستعماري والعمل الدؤوب على إنهائه. لكن ما يميّز الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، ليس فقط قدرته على الفصل والربط بالمعنى الاجتماعي والسياسي وعلى مستوى المخيّلة، ولكنه أيضًا في السنوات الماضية سعى – وما يزال يسعى– إلى توسعة حضوره ووجوده المادي الراسخ في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس. وهو يدير حربه الميدانية هذه ببطء، بحيث يمكن القول إن كل توسّع وكل تنازل رمزي وكل بناء جديد هو جزء من حرب النقاط الآنفة الذكر.

وما يثير قلق الاحتلال وقادته؛ أنه في معادلة الحرب والسلم اليوم يبدو أكثر «دفاعيّة». ولذلك نراه محاولًا الحفاظ على تقدمه البطيء، نقطة نقطة، في الضفة الغربية، بينما يسعى أيضًا لجعل وحدة الساحات مفهومًا لا يملك العديد من عوامل التأثير على الحياة اليومية تحت الاستعمار، ولا يمكن أن يشكّل نقطة ردع وتحوّل بيد المقاومة في هذه الحرب الطويلة الأمد.

في كل الأحوال، ما نجح به خيار «وحدة الساحات» هو أنه أصبح فعلاً هاجسًا عميقاً، خاصة فيما يتعلق بالتطورات فيما يخص القدس والأقصى والأسرى.

إن العلاقة الحالية بين "دولة" الاحتلال وقوى المقاومة هي أقرب ما تكون إلى عملية حسابات تفصيلية، تتضمن على سبيل المثال: تحسين الوضع الاقتصادي لغزة، وعدم الانجرار إلى حرب واسعة مكلِفة، والإبقاء

على الحسابات الإسرائيلية، بحيث يكون اتخاذ قرار اغتيال قيادات أمرًا لا يستسهل الاحتلال القيام به بشكل دوري ودائم، وتوفير مرونة بحيث يمكن للمقاومة إدخال نفسها في حسابات العدو بجغرافيات وساحات سياسية أخرى، على قاعدة الوصول إلى توحيد ساحات ذي فعالية.

علينا أن نذكّر هنا أن مبدأ توحيد الساحات لا يتطلب بالضرورة حربًا واسعة بقدر ما يرتبط بحيثيات قرار الحرب والسلم، بتفاصيله المادية والجغرافية والظرفية الزمانية، كما بقرار تفعيل العمل المقاوم بما تفرضه قضايا سياسية واستراتيجية في ساحات أخرى. ولهذا سيكون الرد المقاوم ضمن حدود العوامل هذه، وفي إطار منظومة الحسابات المعقّدة التي يضعها الاحتلال والمقاومة معًا في سياق الاحتكاك الاستراتيجي والتكتيكي المتواصل بينهما.

وما يهمّنا هنا هو أن اسم اللعبة ومنطلقاتها حدّدتها المقاومة بنفسها؛ بمعنى أن «إسرائيل» اليوم محكومة بضرورة العمل ضمن شروط لعبة فصل الساحات كرد على لعبة توحيد الساحات. وهذا يُظهِر تحوّل المقاومة من حالة دفاعية إلى حالة أقرب للتوازن الاستراتيجي مع الاحتلال؛ وهنا لا نتحدث عن المقاومة في فلسطين فقط، بل عن محور المقاومة في المنطقة.

جدير بالذكر أيضاً أن هناك تفسيراً شائعاً مُتعسِّفاً لفكرة "وحدة الساحات" يجب علاجه وضبط معاييره. فالربط الذي أحدثته معركة سيف القدس في مايو/أيار 2021، بين غزة والقدس، وما ترافق معه من حراك وانتفاض وتفاعل في باقي الضفة الغربية، وفلسطين المحتلة 1948 والخارج، أعطى قفزة نوعية للعمل المقاوم، وأربك العدو الصهيوني. غير أنه سيكون مخطئاً من يظن أن غزة ستدخل حرباً مع العدو الصهيوني كلّما حدث انتهاك في القدس أو جريمة في الضفة الغربية أو انتهاك في الأرض المحتلة عام 1948. فللحروب موازينها ومعاييرها وظروفها وحساباتها وأثمانها. وإذا كان ليس ثمة أدنى شك في الأداء البطولي لقطاع غزة، والصمود الأسطوري لأهله، ولمدرسة العزة والكرامة التي يقدّمها للعالم؛ فليس هناك ضرورة لتحميل القطاع فوق طاقته. فالتضخيم غير الواقعي لقوة المقاومة وإمكاناتها، هو الوجه الآخر لتقزيم المقاومة وإضعاف صورتها ومكانتها. والتقدير الحقيقي للإمكانات هو المدخل السليم لصناعة القرار. وقيادة المقاومة لن تتردد في خوض معاركها، عندما ترى في ذلك مصلحة راجحة للعمل الوطني المقاوم. وبالتالي فإن "وحدة الساحات" يجب أن تعني انخراط كل ساحة في مواجهة العدو بالتنسيق مع الساحات الأخرى، في إطار عمل مركزي للمقاومة، كلٌّ وفق

إمكاناته وقدراته وظروفه؛ وليس دخول قطاع غزة في كل حرب كلّما حدث حادث هنا أو هناك. وإلاّ فإن العدو الصهيوني سيكون قادراً على جرّ غزة إلى حروب ومعارك غير جاهزة لها، في الأوقات والظروف والشروط الموضوعية التي تناسب هذا العدو.

4 – وحدة الساحات في سياق الحروب على غزة:

انسحبت قوات الاحتلال الإسرائيلي من قطاع غزة عام 2005 وأخلت المستوطنات التي كانت فيه. ومنذ ذلك الانسحاب وهي تنفّذ عمليات عسكرية في القطاع من حين لآخر؛ بعضها تحوّل إلى حروب استمرت أسابيع وخلّفت آلاف الشهداء. والقطاع الذي يُعدّ أكثر المناطق كثافة سكانية في العالم، حيث يقطنه نحو مليوني فلسطيني، تعرّض لعدة اعتداءات إسرائيلية على مرّ السنين، بعضها اغتال فيها الاحتلال قيادات لحركات المقاومة الفلسطينية، وبعضها كان يسعى من خلالها لاستعادة أسراه لدى المقاومة، وخاصة الجندي جلعاد شاليط، الذي أسرته المقاومة في يونيو/حزيران 2006.

وبعد سيطرة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) على قطاع غزة في يونيو/حزيران 2007، أعلنت "إسرائيل" في سبتمبر/أيلول 2007 غزة "كياناً معادياً". وفي أكتوبر/تشرين الأول من السنة نفسها، فرضت عليها حصاراً شاملا.ً وفي ما يلي أبرز الحروب التي شنّتها "إسرائيل" على القطاع منذ حصاره.

2008 – 2009: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان

في 27 ديسمبر/كانون الأول 2008، بدأت "إسرائيل" حرباً على قطاع غزة أطلقت عليها اسم "عملية الرصاص المصبوب"، وردّت عليها المقاومة الفلسطينية في القطاع بعملية سمّتها "معركة الفرقان."

وكان الهدف الذي وضعته قيادة الاحتلال لهذه الحرب هو "إنهاء حكم حركة حماس في القطاع"، والقضاء على المقاومة الوطنية الفلسطينية ومنعها من قصف "إسرائيل" بالصواريخ. كما كان الهدف منها أيضاً الوصول إلى المكان الذي تُخبّئ فيه المقاومة الأسير جلعاد شاليط.

استمرّ العدوان 23 يوماً، حيث توقف في 18 يناير/كانون الثاني 2009، واستخدم فيه الاحتلال أسلحة محرّمة دولية، مثل الفسفور الأبيض واليورانيوم المنضّب، وأطلق أكثر من ألف طن من المتفجرات. المقاومة الفلسطينية بدورها استهدفت في هذه الحرب الغلاف الاستيطاني المحيط بغزة (نحو 17 كيلومتراً) بنحو 750

صاروخاً، وصل بعضها لأول مرّة إلى مدينتي أسدود وبئر السبع. وأسفرت هذه الحرب عن أكثر من 1430 شهيداً فلسطينياً، منهم أكثر من 400 طفل و240 امرأة و134 شرطياً، إضافة إلى أكثر من 5400 جريح. ودمّرت أكثر من 10 آلاف منزل دماراً كلياً أو جزئياً. واعترف الاحتلال بدوره بمقتل 13 إسرائيلياً، بينهم 10 جنود، وإصابة 300 آخرين.

(2012) عملية عامود السحاب/حجارة السجّيل: هذه العملية سمّتها "إسرائيل" "عمود السحاب"، وردّت عليها المقاومة الفلسطينية بمعركة "حجارة السجّيل". بدأت الحرب في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2012، واستمرت 8 أيام. وكان الهدف منها تدمير المواقع التي تخزّن فيها حركات المقاومة صواريخها؛ وانطلقت باغتيال الشهيد أحمد الجعبري، قائد كتائب عز الدين القسّام، الجناح العسكري لحركة حماس. وقد استشهد في هذا العدوان نحو 180 فلسطينياً، بينهم 42 طفلاً و11 امرأة، وجرح نحو 1300 آخرين، في حين قتِل 20 إسرائيليًا وأصيب 625 آخرون، معظمهم بـ"الهلع"، بحسب وسائل إعلام إسرائيلية.

فصائل المقاومة ردّت بأكثر من 1500 صاروخ، بعضها تجاوز مداه 80 كيلومتراً، وبعضها وصل لأول مرة إلى تل أبيب والقدس المحتلة. كما استهدف بعضها طائرات وبوارج حربية إسرائيلية. وعلى الجانب الإسرائيلي قتِل جنديان و4 مدنيين. وقدّرت سلطات الاحتلال الخسائر التي لحقت بها بأكثر من مليار دولار. وفي 21 نوفمبر/تشرين الثاني 2012 تم وقف إطلاق النار وإعلان اتفاق تهدئة من القاهرة.

(2014) الجرف الصامد/العصف المأكول:

أطلقت "إسرائيل" في السابع من يوليو/تموز 2014 عملية سمّتها "الجرف الصامد"، وردّت عليها المقاومة بمعركة "العصف المأكول". استمرت المواجهة 51 يوماً، شنّ خلالها جيش الاحتلال أكثر من 60 ألف غارة على القطاع. وقد اندلعت الحرب بعد أن اغتالت "إسرائيل" 6 من أعضاء حركة حماس، زعمت أنهم وراء اختطاف وقتل 3 مستوطنين في الضفة الغربية المحتلة؛ وهو ما نفته "حماس". كما كان من أسباب هذه المواجهة اختطاف المستوطنين الطفل الفلسطيني محمد أبو خضير، والذي جرى تعذيبه وقتله حرقاً. وصرّح رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بنيامين نتنياهو، أن هدف العملية الإسرائيلية هو تدمير شبكة الأنفاق التي بنتها المقاومة تحت الأرض في غزة، وامتد بعضها تحت الغلاف الحدودي. وأسفرت هذه الحرب عن 2322 شهيداً و11 ألف جريح، وارتكبت "إسرائيل" مجازر بحق 144 عائلة، استشهد من كل واحدة منها 3 أفراد على

الأقل، في حين قتِل 68 جندياً إسرائيلياً، و4 مدنيين، إضافة إلى عامل أجنبي واحد، وأصيب 2522 إسرائيلياً بجروح، بينهم 740 عسكرياً.

كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام أطلقت في هذه الحرب أكثر من 8 آلاف صاروخ، استهدفت ببعضها لأول مرة مدن حيفا وتل أبيب والقدس، وتسببت بإيقاف الرحلات الجوية في مطار تل أبيب. وأطلقت المقاومة الفلسطينية أيضاً طائرات مسيّرة في المجال الجوي الإسرائيلي، لم تتمكن منظومات دفاع جيش الاحتلال من اكتشافها إلاّ بعد أن اخترقت العمق الإسرائيلي بأكثر من 30 كيلومترا.ً كما أعلنت كتائب القسّام في 20 يوليو/تموز 2014 أسرها الجندي الإسرائيلي شاؤول آرون، خلال تصدّيها لتوغل بري لجيش الاحتلال في حي الشجاعية شرق مدينة غزة.

(2019) معركة صيحة الفجر:

صباح يوم 12 نوفمبر/تشرين الثاني عام 2019، استيقظ أهالي غزة على دوي انفجار بصاروخ انطلق من طائرة إسرائيلية مسيّرة، استهدف قائد المنطقة الشمالية في سرايا القدس– الذراع العسكرية لحركة الجهاد الإسلامي في غزة، بهاء أبو العطا، في شقّته السكنية في حي الشجاعية شرق مدينة غزة، وأدّى إلى استشهاده هو وزوجته. وردّت حركة الجهاد الإسلامي على هذا الاغتيال بعملية استمرت بضعة أيام أطلقت عليها اسم "معركة صيحة الفجر"، أطلقت خلالها مئات الصواريخ على مواقع وبلدات إسرائيلية. وفي حين تكتّمت "إسرائيل" على خسائرها البشرية والمادية جراء صواريخ المقاومة، فإن غاراتها الجوية أسفرت عن استشهاد 34 فلسطينياً، وجرح أكثر من 100 آخرين، بينهم نشطاء في سرايا القدس، وأعداد كبيرة من المدنيين. وكانت إسرائيل تتّهم أبو العطا –وهو من مواليد غزة عام 1977 وله 5 أبناء– بالمسؤولية المباشرة عن شن هجمات ضد أهداف إسرائيلية.

(2021) معركة حارس الأسوار/سيف القدس:

اندلعت معركة "سيف القدس" التي سمّتها "إسرائيل" "حارس الأسوار"، بعد استيلاء مستوطنين على بيوت مقدسيين في حي الشيخ جراح، وكذا بسبب اقتحام القوات الإسرائيلية للمسجد الأقصى. وأطلقت المقاومة الفلسطينية أكثر من 4 آلاف صاروخ على بلدات ومدن في "إسرائيل"، بعضها تجاوز مداه 250 كيلومتراً، وبعضها استهدف مطار رامون، وأسفرت عن مقتل 12 إسرائيليًا وإصابة نحو 330 آخرين، وفق مصادر

إسرائيلية. وأسفرت هذه الحرب عن نحو 250 شهيداً فلسطينياً وأكثر من 5 آلاف جريح. كما قصفت "إسرائيل" عدة أبراج سكنية، وأعلنت عن تدمير نحو 100 كيلومتر من الأنفاق في غزة. وقد تم وقف إطلاق النار بعد وساطات وتحركات وضغوط دولية.

(2022) معركة الفجر الصادق/وحدة الساحات:

في يوم الجمعة، الخامس من أغسطس/آب 2022، اغتالت "إسرائيل" قائد المنطقة الشمالية لسرايا القدس (الذراع العسكري لحركة الجهاد الإسلامي) في غزة، حيث استهدفته بطائرة مسيّرة داخل شقة سكنية في "برج فلسطين" بحي الرمال. وجاءت عملية الاغتيال في ظل جهود كانت تبذلها مصر لمنع تدهور الأوضاع، إثر إقدام "إسرائيل" على اعتقال القيادي البارز في حركة الجهاد الإسلامي في جنين بالضفة الغربية، بسام السعدي، يوم الإثنين 8/1 /2022. وقد نشرت كاميرات المراقبة في المكان صوراً مستفزة ترصد السحل والضرب والتعذيب خلال عملية الاعتقال. وأطلقت "إسرائيل" على هذه العملية اسم "بزوغ الفجر"، وعلّلت اختيار تلك التسمية بأنها "لتأكيد تركيزها على حركة الجهاد التي تتخذ اللون الأسود شعاراً"، بحسب بيان لجيش الاحتلال. وردّت حركة الجهاد الإسلامي بعملية سمّتها "وحدة الساحات"، وأطلقت خلالها مئات الصواريخ على بلدات ومدن إسرائيلية. وقالت في بيان إنها عملية مشتركة مع كتائب المقاومة الوطنية وكتائب المجاهدين وكتائب شهداء الأقصى (الجناح العسكري لحركة فتح). وقالت سرايا القدس في بيان لها إنها قصفت تل أبيب ومطار بن غوريون وأسدود وبئر السبع وعسقلان ونتيفوت وسديروت. وأفادت وزارة الصحة في قطاع غزة بأن عدد الشهداء في هذه الحرب بلغ 24، بينهم 6 أطفال، في حين أصيب 203 بجروح مختلفة، منذ بداية الغارات الإسرائيلية على غزة.

5 – "سيف القدس" _ نقطة التحوّل:

مضى عامان على معركة "سيف القدس" (من 10 مايو/أيار 2021 حتى 21 منه) التي بدأتها المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة رداً على استيلاء مستوطنين إسرائيليين على بيوت مقدسيين في حي الشيخ جراح، إضافة إلى عمليات الاقتحام المتصاعدة للمسجد الأقصى والانتهاكات ضد المصلّين والمقدسيين عموماً؛ تلك المعركة التي جاءت لتثبيت المعادلات، التي من أهمها ترابط جبهات الساحات الفلسطينية ووحدتها، من غزّة

إلى القدس والضفة الغربية، وصولاً إلى الأراضي المحتلة عام 1948، وليس انتهاءً بسوريا ولبنان وإيران واليمن والعراق.

وقد بدأت المقاومة الفلسطينية في حينه المعركة مجتمعة، بقصف من "كتائب القسّام"، الذراع العسكرية لحركة "حماس"، مستوطنات القدس المحتلة، بالتزامن مع إطلاق "سرايا القدس"، الذراع العسكرية لحركة "الجهاد الإسلامي"، صاروخاً موجّهاً ضد جيب إسرائيلي شمالي غزة، بعد ساعات من تهديد رئيس هيئة أركان "كتائب القسام" محمد الضيف. ومنذ اللحظة الأولى لبدء المعركة وحتى اتفاق وقف إطلاق النار بوساطة مصرية وقطرية وأممية وبضغط أميركي، أظهرت المقاومة قدرات غير عادية للمرة الأولى بتصدّيها للعدوان، وهي التي بادرت بتحديد ساعة الرد على الانتهاكات الإسرائيلية والعدوان. وأطلقت المقاومة خلال المعركة أكثر من 4 آلاف صاروخ على مستوطنات ومدن الاحتلال، واستهدفت للمرة الأولى مطار رامون الذي يبعد عن غزة نحو 220 كيلومتراً، وكان قصفها مُركّزاً، إذ كانت تخرج في الرشقة الواحدة ما بين 35–130 صاروخاً، ما أدّى إلى نتائج في مسار المعركة التي انتهت بمقتل 13 إسرائيلياً وإصابة 340 آخرين. وتعرّضت غزة، التي ربطت هدوءها بما يجري في القدس والضفة المحتلّتين والداخل، إلى دمار واسع. واستُشهد خلال المعركة نحو 250 فلسطينياً وأصيب نحو 5 آلاف آخرين؛ ودمّر العدوان أبراجاً سكنية وجزءاً من شبكة أنفاق المقاومة، في ضربةٍ كان يهدف من خلالها إلى قتل عشرات المقاومين الذين حاول استدراجهم للنزول في الأنفاق عقب إعلان مضلّل وكاذب عن بدئه اجتياحاً برياً. وبالتالي فرضت المعركة قواعد اشتباك حقيقية على الأرض، خصوصاً في المسجد الأقصى، وبات التحرك الإسرائيلي فيه محسوباً، حتى في ظل الحكومة الحالية المتطرفة برئاسة بنيامين نتنياهو؛ ومن نتائجها ما يجري في الضفة الغربية والقدس من عمليات شبه يومية ضد المستوطنين وقوات الاحتلال.

لقد أعادت معركة "سيف القدس"، التي استمرت 11 يوماً، الأمل للفلسطينيين بعد سنوات من الإحباط، وحرّكت خلايا المقاومة النائمة في الضفة، حتى بات لها فعلها المقاوم في أتون المواجهة؛ وأكدت مرة أخرى أنّ الداخل الفلسطيني المحتل جزء لا يتجزأ من المعركة الكبرى مع الاحتلال، الذي كان يحاول طوال الوقت محاصرة الفلسطينيين وتدجينهم داخل منعزلاتهم. وفي هذا المجال، أكد القيادي في حركة "حماس" إسماعيل رضوان أنّ معركة "سيف القدس" وحّدت الشعب الفلسطيني على خيار المواجهة والتصدي بعد سنوات من

محاولات التدجين، ورفعت المعنويات عالياً، وكان من مفاعيلها ما يجري اليوم في الضفة الغربية من مقاومة متصاعدة ومن حراك في الأراضي المحتلة عام 1948. وأشار رضوان إلى أنّ المعركة أكدت وحدة الساحات وترابط جبهات المقاومة، ومعادلة غزة– القدس. وقبل أيام جرى تأكيد معادلة غزة الأسرى، من خلال الرد على جريمة اغتيال القيادي الأسير الشيخ خضر عدنان، وأن الأسرى خط أحمر، كما أن القدس خط أحمر. وتحدّث عن قدرات المقاومة وإمكاناتها في المعركة، خصوصاً أنها باغتت الاحتلال بكل جديد من دون أن يُقدّر خطواتها، في ظل ما سمّاه عجز "القبّة الحديدية" عن التصدي لصواريخ المقاومة، مشدداً على وجود ارتقاء نوعي في قدرات المقاومة، وأنّ ما تخبّئه حالياً أكبر بكثير مما يعلمه الاحتلال. وشدّد رضوان على أنّ أي "حماقة" إسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ستُشعل حرباً في المنطقة كلها، والرد عليها سيكون مؤلماً وكبيراً للاحتلال، موضحاً أنّ الاحتلال "يستطيع بدء العدوان لكنه لن يستطيع إنهاءه ولا تحديد نتائجه."

أما القيادي في حركة "الجهاد الإسلامي"، داود شهاب، فأشار إلى أنّ معركة "سيف القدس" شكّلت تحوّلاً فارقاً في مسيرة المقاومة الفلسطينية، وهي ليست حدثاً عابراً في سير المواجهة مع الاحتلال. فقد تحوّلت إلى واحدة من أهم قواعد الاشتباك، وحقّقت هدفاً مهماً يتمثل في جعل القدس من أقوى العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى تفجير كبير للأوضاع. وأضاف أن هذا يعد بُعداً استراتيجياً في الصراع في ظل اشتداد الهجوم الإسرائيلي على القدس والمسجد الأقصى، وسعي المتشددين اليهود، بقيادة بن غفير وسموتريش، لحسم الصراع على القدس، مؤكداً أنّ رسالة معركة "سيف القدس" كانت أن إسرائيل لم ولن تنجح في حسم الصراع على مستقبل مدينة القدس، وأن المواجهة مفتوحة. وأوضح شهاب أنّ المهم في المعركة أنها أعطت مساحة واسعة لمشاركة كل الشعب الفلسطيني في المواجهة. فما شهدته المواجهات في المدن الفلسطينية المحتلة عام 1948، أو في الضفة الغربية، وحتى في تجمعات اللاجئين الفلسطينيين في اللجوء والشتات، يعكس الأهمية الاستراتيجية لتلك المعركة، التي فتحت الطريق فيما بعد لوحدة الساحات التي كانت عنوان معركة خاضتها "سرايا القدس" في أغسطس/آب 2022. وبيّن شهاب أنّ المعركة حقّقت نتائج مهمة على صعيد اشتعال الضفة الغربية في وجه الاحتلال ومستوطنيه، مشيراً إلى أنّ الشهيد جميل العموري، مؤسّس "كتيبة جنين" ومجدّد حالة الاشتباك في الضفة، بدأ بتشكيل نواة المجموعات العسكرية في جنين كنتيجة لمعركة "سيف القدس"، والتي شكّلت دافعاً للشباب الفلسطيني في الضفة للانخراط في صفوف المقاومة. ولفت إلى بُعد آخر في المعركة، إذ فتحت الباب

أمام مشاركة قوى المقاومة في المواجهة عبر جبهات أخرى مثل لبنان وسورية، في إشارة لما جرى في 7 إبريل/نيسان الماضي من خلال الرد الصاروخي على اقتحام وتدنيس الأقصى والاعتداء على المرابطين والمعتكفين فيه. وأوضح أنه قبل "سيف القدس" كانت المعارك التي خاضتها المقاومة الفلسطينية من غزة، تأتي تحت عناوين لها علاقة بالقطاع. أما المعركة ذاتها، فقد تجاوزت ذلك عندما جاءت المقاومة للدفاع عن القدس والمسجد الأقصى، لافتاً إلى أن هذا الأمر جاء على غير ما كانت تتوقعه المنظومة الأمنية والسياسية والعسكرية الإسرائيلية التي سعت لإشغال كل منطقة جغرافية بمشاكلها وقضاياها؛ وبالتالي الفصل بين الساحات.

إسرائيلياً، كانت المعركة مختلفة من حيث بدؤها وربطها بالقدس، بعد سنوات من محاولة إلهاء الفلسطينيين بقضايا حياتية واقتصادية معيشية. ورصد الخبير في الشأن الإسرائيلي، حاتم أبو زايدة، أبعاداً جديدة لمعركة "سيف القدس"، مشيراً إلى أنها أدّت إلى كيّ وعي نوعي في العقل الجمعي الإسرائيلي. فمنذ قرار الانسحاب الإسرائيلي من غزة في عام 2005، كان المخطط تحييد جبهة غزة وإبعادها عن الفعل المقاوم بشكل كامل؛ لكنها في "سيف القدس" أعادت الاعتبار لتوحيد الجبهات والساحات وأجنحة الوطن، وكانت رداً من المقاومة على محاولات ترويضها واخضاعها. ودفعت المعركة، وفق أبو زايدة، باتجاه التأكيد للنخبة الإسرائيلية بأنّ القطاع قادر على المبادرة والقصف والذهاب إلى الأمام بغضّ النظر عن النتائج. فالجيش الإسرائيلي كان دائماً يفاجئ ويبادر في شن العدوان، بينما هنا كانت المقاومة هي المُبادِرة. وأوضح أنّ المعركة "أعادت الاعتبار لقضية القدس والأقصى، ومركزيتها، وأكدت أنّ المقاومة لا تتوانى إذا تم العدوان على المسجد الأقصى، خصوصاً في ظل ما يجري من محاولات تقسيم زماني ومكاني"، مبيّناً كذلك أنّ "سيف القدس" دفعت إعادة الاعتبار للقضية الفلسطينية عربياً وإسلامياً. ونبّه أبو زايدة إلى أنّ القيادات السياسية والأمنية والعسكرية في دولة الاحتلال باتت تحسب حساباً لأي خطوة ولو صغيرة في المسجد الأقصى؛ وهذا يعكس مدى كيّ الوعي الذي حدث للعقلية الإسرائيلية النخبوية والجمعية. وأشار إلى وجود شعور عام في "إسرائيل" بأنّ قدرة الردع انهارت ولم تتآكل فقط، وأنّ القيادة السياسية المتطرفة بحاجة إلى بناء قدرة الرد؛ وهذا يعني أنها بحاجة إلى حرب مفاجئة ودموية وتفكيك وحدة الجبهات والساحات. وهذا يعني، وفق تقدير أبو زايدة، بأنّ الاحتلال بحاجة إلى إعادة بناء قوة الردع والوجه القوي والدموي المتوحش للآلة العسكرية الإسرائيلية على

حساب الدم الفلسطيني. والهاجس والرعب الإسرائيليان من "وحدة ساحات" المقاومة، ترجمهما المستشرق الإسرائيلي، مُردخاي كيدار، الذي نشر مقالاً بعنوان "يوم القيامة"، يحاكي هجوماً مشتركاً ضد "إسرائيل" من سوريا والعراق ولبنان واليمن وغزة والضفة الغربية.

6 – صورة العدو بعد "سيف القدس":

منذ معركة «سيف القدس» في مايو/أيار 2021، والكيان الإسرائيلي يسعى لترميم صورته المتردية، واسترداد زمام المبادرة، وفرض أجندته الخاصة على المسار الفلسطيني. فقد شكّلت تلك المعركة مفاجأة للاحتلال من حيث سلبه زمام المبادرة ببدء المعركة، وبما فرضته من التحام مقاومة غزة مع قضية القدس وأهالي الشيخ جرّاح، في إشارة إلى وحدة الساحات الفلسطينية، بخاصة في ظل ردود أفعال فلسطينية قوية آنذاك في الضفة الغربية، بما فيها القدس وفلسطينيي الـ48، وفلسطينيي الشتات، الأمر الذي أدّى إلى تكريس استراتيجية "وحدة الساحات" وإظهار قدرة الجهاد الإسلامي على الوقوف بوجه العدوان؛ وإلحاق الخسائر بالعدو، وإرباك أمنه ونشاطه الاقتصادي، وإجباره على وقف سياسة اغتيال القيادات، واعتقال الرموز. كما شنّت "إسرائيل" عملية عسكرية أخرى على قطاع غزة (عملية الفجر الصادق) ما بين 5–2022/8/7. وقد تركّزت تلك العملية على استهداف حركة الجهاد الإسلامي. وردًا على ذلك، قامت حركة الجهاد بالتصدي القوي للعدو عبر عملية "وحدة الساحات"، بينما وفّرت لها "حماس" الدعم اللوجيستي اللازم، من دون المشاركة في خوض المواجهة العسكرية.

وقد أسفرت تلك العملية، بحسب وزارة الصحة الفلسطينية، عن استشهاد 49 فلسطينياً، بينهم 17 طفلاً، وإصابة 360 آخرين بجراح مختلفة. كما تمكّنت "إسرائيل" من اغتيال اثنين من كبار قادة "سرايا القدس"، وهما: تيسير الجعبري وخالد منصور. وفي المقابل، كانت العملية الأقل لناحية إلحاق الضرر بالإسرائيليين؛ فلم يسجّل لديهم أي قتلى، في حين أن أعداد الجرحى كانت محدودة للغاية. وبالرغم من ذلك، فقد فشلت «إسرائيل» بتحقيق الأمن النفسي للصهاينة واضطرت لرؤية مليون منهم في الملاجئ في أكثر من منطقة، من الجنوب إلى القدس وتل أبيب. وعزّز هذا المشهد بذاته قدرة الردع الفلسطيني على إحداث الأثر المطلوب، خاصة لجهة التأثير السلبي على قرار الحرب، الأمر الذي يضع المسؤول الإسرائيلي، في المستوى السياسي

أولاً ثم العسكري، أمام عامل ضاغط يمنعه من استسهال اتخاذ قرار تطوير الحرب وإطالة أمد المواجهة؛ وهذا ما رأيناه من مواقف هؤلاء المسؤولين الذين أبدوا خشيتهم من تدحرج الأمور إلى حيث تثير الندامة لديهم، والدخول في دوائر من القلق والخطر ليسوا جاهزين للتعامل معها، خاصة أنّ العدو عجز عن إسكات مصادر النار أو إسقاط كلّ الصواريخ التي وُجّهت اليه.

من أجل ذلك، اختارت «إسرائيل» أن تنفّذ عدواناً تستفرد فيه بحركة الجهاد الإسلامي، التي هي فصيل فلسطيني مقاوم يُعتبر الأقرب الى إيران من الجميع؛ كما يُعتبر حلقة الربط الأساسية بين المقاومة الفلسطينية ومحور المقاومة؛ وذلك كي تحقّق أهدافاً ثلاثة، أوّلها طيّ صفحة المعادلات التي أنتجتها معركة «سيف القدس»، وأهمّها معادلة الردع المتبادل وحماية الأقصى من غزة؛ والثاني دقّ إسفين بين الجهاد الإسلامي وبقية فصائل المقاومة، مع رغبة في إدخال "الجهاد" في صراع مع "حماس"؛ والثالث سحق القدرات القتالية للجهاد الإسلامي، على أن يكون ذلك بدءاً لاستراتيجية الاستفراد والتدمير.

كما سعى كيان العدو إلى تحييد المقاومة في غزة، وإفقادها مصداقيتها، ومحاولة إظهار عجزها أمام شعبها وأمّتها، أو على الأقل عدم قدرتها على إنفاذ تهديداتها. وبالتالي، إضعاف حاضنتها الشعبية، وإيجاد بيئات تسعى للتخلص من قيادة المقاومة لقطاع غزة. وسعى الكيان أيضاً إلى استعادة زمام المبادرة التي خسرها في معركة سيف القدس وتعديل ميزان القوى واستعادة حالة الردع. كما سعى لضرب شعار واستراتيجية «وحدة الساحات» التي ثبّتتها معركة «سيف القدس»، وتفريغ نتائجها من مضمونها؛ ومن ثم إلى تعزيز الوضع الداخلي الإسرائيلي، وتقوية الثقة بالقيادة السياسية والعسكرية، في ضوء حالة من الارتباك السياسي الداخلي؛ ناهيك عن محاولة إثارة الفتنة بين حركتي حماس والجهاد ودق إسفين الخلاف بينهما، بخاصة بعد إعلان كيان الاحتلال عن استهداف الجهاد فقط خلال تلك الجولة، والانتقام من حركة الجهاد الإسلامي بسبب أدائها المقاوم في الضفة الغربية المحتلة؛ وتوجيه رسالة ضمنية لـ«محور المقاومة» في الخارج، بقدرة الجانب الإسرائيلي على الاستفراد بحلفائه، بدون تَمكُّن قوى المحور من التدخل المباشر.

وبالرغم من كل شيء، فقد وجّهت المعركة ضربة قوية لنظرية الأمن الصهيونية، وأحدثت حالة من التصدع في جدار قوة الردع التي كانت تُباهي بها «إسرائيل»، التي ظهرت مرتبكة، وخائفة من ردود أفعال المقاومة الفلسطينية، خصوصًا عندما تُمسُّ مقدّسات الأمّة، وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك.

في المقابل، تسارعت وتيرة العدوان الإسرائيلي على القطاع خلال السنوات الماضية، بما يوحي باستراتيجية إسرائيلية تسعى لكبح تنامي المقاومة ومنعها من مراكمة قوّتها وإنجازاتها، والحيلولة دون إيجاد بيئات فلسطينية تشجّع على تنامي المقاومة في الضفة الغربية. وللأسف، يبدو أن قيادة "الجهاد" لم تأخذ إجراءات احتياطية كاملة لحماية قيادتها، وهو ما سهّل على العدو اغتيال «تيسير الجعبري»، قائد سرايا القدس في شمال قطاع غزة. ومن جهتها، قامت حركة الجهاد بإعلان معركة «وحدة الساحات» والمطالبة بإطلاق سراح بسام السعدي وخليل العواودة. وتمكّنت حركة الجهاد من إطلاق أكثر من ألف صاروخ خلال يومين ونصف من المواجهات (5–7 أغسطس/آب 2022). وقد أحدثت صواريخ المقاومة نحو 222 ضررًا مباشرًا، منها 84 في عسقلان و66 في سديروت و72 في مدن أخرى. واستشهد نتيجة العدوان 47 فلسطينيًا وجُرح أكثر من 300؛ وكان من أبرز الشهداء، الشهيد «خالد منصور»، قائد اللواء الجنوبي في سرايا القدس.

بالنسبة للجانب الإسرائيلي، ظهر على ما يبدو مرتاحًا لاستفراده بحركة الجهاد، وقيامه باغتيال نوعي لأبرز قادتها العسكريين في القطاع؛ كما تابع الاستفراد بالقدس، حيث صعّد عدوانه على الأقصى بالتزامن مع العدوان على غزة، إمعانًا في مساعيه لفصل مسار القدس والمضي به وفق المخطط التهويدي، وتكريسًا لفصل الساحات. كذلك استطاعت «إسرائيل» التنبؤ بسلوك "حماس" وردود فعلها، في ضوء عدم رغبتها بالدخول العسكري المباشر في المعركة، نظرًا لما تراه من عدم توفّر شروط موضوعية لخوض معركة ناجحة وفق شروط المقاومة، ونظراً لوجود بيئة شعبية واسعة في القطاع لا ترغب في الدخول في معركة جديدة. وقد استغل الجانب الإسرائيلي ذلك، محاولًا إضعاف صورة المقاومة ومصداقيتها، وتكريس فصل الساحات، ودق أسافين الخلاف بين الجهاد وحماس.

وبالرغم من كل ما تقدّم، فقد قدّمت حركة الجهاد أداء بطوليًا في مواجهة العدو، الذي فشل في إسكات صواريخها حتى إعلان وقف إطلاق النار. وحصلت من الوسيط المصري على تعهد بالعمل على إطلاق سراح الأسيرين السعدي والعواودة. وفي الوقت الذي لام البعض "حماس" على عدم المشاركة في مواجهة العدو، فقد لام آخرون حركة الجهاد على الاستفراد بقرار المواجهة دونما قرار مسبق مع قيادة المقاومة في القطاع، أو من غرفة العمليات المشتركة. وعلى أي حال، فقد قامت "حماس" بتوفير الدعم اللوجستي لحركة الجهاد في تصدّيها للعدوان. كما أن تصريحات قادة المقاومة، من حماس والجهاد، المؤكدة على الأخوّة

والوحدة والتعاون السياسي والعسكري، واللقاءات القيادية المشتركة، أسهمت في قطع الطريق على العدو للّعب على وتر أي خلافات محتملة.

وفي الخلاصة، نجد أنّ معركة «وحدة الساحات» حقّقت نصراً للمقاومة الفلسطينية بشكل عام، صنعته حركة الجهاد الإسلامي التي منعت «إسرائيل» من تحقيق أهداف عدوانها، فأنزلت بها هزيمة واضحة أقرّ بها الإعلام الإسرائيلي، الذي ذهب بعضه لوصفها بالهزيمة «المدويّة». أما على الصعيد الفلسطيني، فقد شكّلت المعركة مناسبة لإعادة تشكيل الخريطة السياسية والعسكرية، ولإظهار قوة حركة الجهاد الإسلامي ذات الالتزامات العقائدية المعروفة، والتي لم تنخرط مطلقاً في مفاوضات التسوية، وترى أنّ مواجهة "إسرائيل" لا تكون إلاّ بالمقاومة.

وبناءً عليه، يمكن القول إنه لا توجد أي خلافات حقيقية بين حركتي حماس والجهاد فيما يتعلق بأولوية الخيار العسكري في التعامل مع الاحتلال الإسرائيلي وتنسيق جهودهما العسكرية لمواجهته؛ ولكن نقطة الاختلاف الرئيسة تتمثل في أن حركة الجهاد تقدّم نفسها كحركة مقاومة عسكرية وليست حركة سياسية. أما حركة «حماس»، فهي بالأصل حركة سياسية تمتلك جناحاً مسلّحاً، وأصبحت تمثّل السلطة الحاكمة في قطاع غزة؛ ما يفرض عليها إدارة الصراع، بشقّيه السياسي والعسكري. ومن هنا ينبع حرص "حماس" على عدم توسيع المواجهات مع "إسرائيل"، ما قد يتسبب بحرمان قرابة ثلاثين ألف عامل فلسطيني يدخلون إلى الكيان يومياً من مصدر عيشهم، هم وعائلاتهم، بما يفرض عليها أعباء مالية هي غير قادرة على مواجهتها.

كما لا تريد "حماس" خسارة ما تحقّق من تخفيف القيود المفروضة على استيراد مجموعة متنوعة من مواد البناء إلى غزة، مما سمح ببدء العمل بالعديد من مشاريع البنية التحتية التي جرى التخطيط لها منذ فترة طويلة. كما إن "إسرائيل" ربطت بين دخول «حماس» على خطّ المعركة، وبين «إعادة الأوضاع الإنسانية إلى ما قبل عشر سنوات»، أي إعادة تجفيف المصادر المالية، ومنْع المؤسّسات الدولية من العمل في القطاع؛ فضلاً عن وقْف المنحة القطرية وسحب تصاريح عمل 15 ألف عامل من غزة؛ إلى جانب التهديد بمضاعفة مستوى ضرب الأهداف المدنية، ولا سيما الأبراج السكنية والبنى التحتية.

7 – لماذا عدم تدخل "حماس" ؟

منذ اللحظة الأولى لاعتقال الشيخ بسام السعدي وإعلان سرايا القدس حالة الاستنفار، عقدت غرفة العمليات المشتركة التي تضم عشرة فصائل مسلّحة في قطاع غزة اجتماعاً تقييمياً لما يمكن أن تؤول إليه الأمور، ولا

سيما بعد أن أعلنت "إسرائيل" إغلاق المعابر مع قطاع غزة، والبدء بعملية إخلاء لبعض مناطق الغلاف، بعد ورود تحذيرات أمنية تفيد بأن سرايا القدس ستنفّذ عملية عسكرية في منطقة الغلاف، رداً على اعتقال الشيخ السعدي. وترتّب على ذلك ما هو أشبه بحظر التجوّل في مناطق غلاف غزة، استمر ثلاثة أيام، في معادلة فرضتها سرايا القدس على الاحتلال. وعليه، فإن مؤشرات التصعيد كانت واردة إذا لم تتم الاستجابة لجهود القاهرة، التي سعت منذ اللحظة الأولى لتفويت الفرصة على الاحتلال. لكن على الرغم من الوساطة المصرية، فإن الاحتلال، كعادته، غدر بالجميع وأطلق شرارة العدوان عبر اغتيال المجاهد تيسير الجعبري في مبنى برج فلسطين وسط مدينة غزة. وبعد شنّ "إسرائيل" عدوانها، أثارت مسألة مشاركة حركة "حماس" في المعركة من عدمها، جدلاً كبيراً فلسطينياً وعربياً، وانقسمت الآراء بين مؤيّد ومعارض، كأنّ قرار المشاركة من عدمه ترف سياسي لهذا الطرف أو ذاك. والواقع أن عدم مشاركة "حماس" أسّس لمعادلة ردع جديدة تضمن عدم المساس بالأبراج والبنية التحتية والمقار الحكومية في القطاع، إلى جانب المؤشرات الرقمية عن الواقع الإنساني السيء في قطاع غزة، والتي كانت حاسمة في اختيار طريقة إدارة المعركة، حيث أفادت إحصاءات البنك الدولي أن نسبة الفقر في قطاع غزة وصلت إلى 64%، وانعدام الأمن الغذائي في القطاع وصل إلى 68%، ونسبة البطالة 46%، وأكثر من 1500 وحدة سكنية تم تدميرها تدميراً كاملاً في العدوان الإسرائيلي في سنة 2021 (معركة سيف القدس)؛ فضلاً عن عدم صرف شيكات الشؤون لثمانين ألف أسرة فلسطينية هي الأشد فقراً في القطاع منذ أكثر من عامَين. أيضاً، هناك 50,000 موظف حكومي في قطاع غزة يعملون منذ أعوام بنصف راتب تقريباً، عدا الإجراءات التي فرضها الرئيس محمود عباس على القطاع، من تخفيض نسب الرواتب والتقاعد الإجباري، وأزمة الكهرباء التي بات يشعر المواطن بأن حل القضية الفلسطينية هو أقرب من حل مشكلتها؛ بينما قطاع الصحة يعاني معاناة شديدة جرّاء نقص حاد في الأدوية والمعدّات.

و من منظور آخر، فإن مشاركة "حماس" كانت ستحافظ على وحدة الميدان والساحات، لكن المقاومة كانت ستعاني استنزافاً عسكرياً كبيراً، ولا سيما أنها أطلقت في معركة سيف القدس الآلاف من الصواريخ.

وتتلخص رؤية "إسرائيل" حول عدم مشاركة "حماس" في المعركة ضمن مقولتين: نجاح قوة الردع الصهيوني، وسياسة السلام الاقتصادي، حيث تخشى "حماس" من فقدان بعض مكتسباتها التي تخفّف من حالة الحصار عليها. والخلاصة أن "إسرائيل" لعبت على وتر تحييد "حماس" في هذا العدوان، واستثمرت ذلك سياسياً

وإعلامياً؛ وهذا وجه آخر للحرب ضد المقاومة، عبر تقسيمها مكانياً وزمانياً. لكن على الرغم من ذلك، فإن حالة النضج السياسي التي تعاملت بها "حماس" تُسجّل لها، كون عدم تدخّلها أسهم في إنهاء المعركة في أسرع وقت.

8 – خاتمة:

تسعى "إسرائيل" باستمرار إلى تفكيك ساحات المواجهة معها، لأنها مقتنعة بأن القوة العسكرية الهائلة التي تمتلكها، لا تؤهّلها، بالرغم من ذلك، لخوض حرب على عدة جبهات، قد تخسّرها ما تبقى لها من قوة ردع مفترضة. ولذلك شاهدنا كيفية تحميلها "حماس" مسؤولية إطلاق الصواريخ من جنوب لبنان، وتبرئة الحزب، لكي تعفي نفسها من المواجهة معه. والحقيقة أن كيان العدو، منذ معركة «سيف القدس» في مايو/أيار 2021، يسعى لترميم صورته، واسترداد زمام المبادرة العسكرية، وفرض أجندته على المسار الفلسطيني. فقد شكّلت تلك المعركة مفاجأة للاحتلال في أخذها زمام المبادرة ببدء المعركة، وبما فرضته من التحام مقاومة غزة مع قضية القدس وأهالي الشيخ جرّاح، في إشارة إلى وحدة الساحات الفلسطينية، التي تعني الربط المباشر بين غزة والضفة في كل المجالات الجهادية؛ بخاصة أن الاحتلال يسعى على الدوام إلى فصل غزة عن كل ما يجري في الضفة الغربية، للاستفراد بالمقاومة الفلسطينية فيها، وهي الآخذة بالتشكل مجدداً، والنمو في مناطقها كافة، خاصة في ظل ردود أفعال فلسطينية قوية آنذاك في الضفة الغربية، بما فيها القدس وفلسطينيي الـ48، وفلسطينيي الشتات. والاحتلال، من جانبه، أطلق على عملية الغدر في غزة تسمية «الفجر الصادق»، وأراد منها بصورة محدّدة الاستفراد بـ«الجهاد الإسلامي»، وإلحاق الأذى الكبير في جسم هذا التنظيم، لتحقيق هدفين أساسيين؛ أوّلهما فصل الساحات والاستفراد بالمقاومة الفلسطينية في الضفة، حيث تؤدّي حركة «الجهاد» عبر «سرايا القدس» دوراً مركزياً فيها، وثانيهما إحداث الشرخ بين حركتي «حماس» و«الجهاد» في قطاع غزة. وقد وجّهت المعركة ضربة قوية لنظرية الأمن الصهيونية وأحدثت حالة من التصدع في جدار قوة الردع التي كانت تُباهي بها «إسرائيل»، التي ظهرت مرتبكة، وخائفة من ردود أفعال المقاومة الفلسطينية، خصوصًا عند المساس بمقدّسات الأمّة، وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك.

بعد الاغتيال الغادر للقائد في سرايا القدس، الشهيد تيسير الجعبري، وبدء عدوان صهيوني واسع على قطاع غزة، لضرب و"اجتثاث" حركة الجهاد الإسلامي وسرايا القدس، للانتقام من توسيع دائرة المقاومة في الضفة الغربية، أعلنت الحركة، بلسان أمينها العام، القائد المجاهد زياد النخالة، أنها تخوض معركة وحدة "الساحات،" وذلك كاستكمال وتطوير لما أرسته معركة "سيف القدس" في العام 2021، التي اندلعت لحماية مدينة القدس من الاستيطان والتطهير العرقي الزاحف وحماية المسجد الأقصى والمقدّسات من التهويد. وفي المحصّلة، إن "وحدة الساحات" تشكّل ولادة جديدة للمقاومة الفلسطينية بعد سيطرة العدو على كافة ساحات المقاومة الفلسطينية ونضال الشعب الفلسطيني، وتجزئتها الى أجزاء، يعيش كل جزء منها في حالة تشرذم وتخبط أمام زحف المستوطنين الإرهابيين؛ وهي الوحدة التي عمل الشيخ بسام السعدي على ترسيخها في مدن الضفة الغربية، لا سيما بين جنين ونابلس، عبر مقاومة كتائبها، ما أزعج العدو الذي يريد إبقاء الضفة الغربية جزراً منفصلة عن بعضها البعض، مشلولة وغير قادرة على التحرك ومواجهة المستوطنين، كما هو الحال في مناطق متفرقة من الضفة الغربية.

وعلى ضوء ما تقدّم، يبدو أن «الجهاد» قادرة على التموضع العسكري في الضفة، على عكس «حماس» التي لم يُلحظ لها وجود عسكري ملموس فيها. وربما كانت «الجهاد» قادرة على تطبيق «وحدة الساحات» بقوّة أكثر من سواها، طالما أن بزوغ الفجر الفلسطيني يتلمّس خطاه في ساحات الضفة، مدنها وقراها ومخيّماتها.